مجلة الرائد

العدد : ٢١٦ الموافق في شوال ١٤٢٠ هجري ٢ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : الغرب الذي نعيش فيه هل نفهمه ؟ (١)	بقلم : أ. متولي موسى

لا شك في أن معرفة الإنسان للآخر والمجتمع الذي يعيش فيه ضرورية لتكييف حياته الآنية والمستقبلية ، وعليه فلا بد للمسلم الذي يعيش في الغرب من أن يفهمه ، فالإنسان الأحادي البعد قد يتحول إلى أناني مستبد ، ولقد عانت البشرية من مثل هذا الإنسان الأحادي البعد عبر العصور بدءاً بابن آدم الأول الذي أخبرنا الله تعالى عنه في قوله : { **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ❊ لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله ربَّ العالمين ❊ إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ❊ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** } [المائدة : ٢٧ - ٣٠] .

ولقد وجدت في الغرب صورة لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، هي غاية في الفردانية ، كان من نتائجها قتل الهنود الحمر في أمريكا ليحل محلهم الرجل الأبيض من الغرب ، ثم جيء بملايين من أهل إفريقيا لخدمة الرجل الأبيض كعبيد أحقر من الكلاب ، والذي يتابع ما يحدث في فلسطين وفي البلقان وفي القفقاس يجد أن الصورة هي هي ، وأخشى أن يكون في المستقبل أفظع منها ، والذي يطّلع على كتاب "فخ العولمة : عدوان على الديمقراطية والرفاهية الاقتصادية " تتجلى له هذه الصورة بوضوح !!!

يقول روجيه غارودي : « أكد بول فاليري بأن أوروبا صيغت من تقاليد ثلاثة :

- في الميدان الأخلاقي : المسيحية وعلى نحو أدق ، الكاثوليكية
- في ميدان القانون والسياسة والدولة : تأثير القانون الروماني الذي لا ينقطع .
- في ميدان الفكر والفنون : التقليد اليوناني .

فلماذا نفصم فيها هذه التيارات الثلاثة عن منابعها ؟ على هذا النحو ، نخلق الوهم بأن الغرب هو بداية مطلقة ، بأنه انبجس كنبتة نمتنع عن تعقب جذورها ، منعزلة ووحيدة ، كنوع من معجزة تاريخية .

ذلك هو إضفاء قناع على الجوهر : إن ما اصطلح على تسميته بالغرب قد ولد في الهلال الخصيب وفي مصر ، أي في آسيا وأفريقيا » [1] .

ولمعرفة هذا الغرب لا بد من الحديث عن فكرة العالمية والقومية والوطنية ، ثم بيان محددات

شخصية مجتمع ما .. مع إسقاطها على الغرب على النحو الآتي :

أولاً : فكرة العالمية والقومية والوطنية :

تعتبر هذه الأفكار من الأسس في تصور العلاقات ، ولذلك لا بد من الحديث عن كل منها بالتفصيل :

١- العالمية وعلاقتها بالانتماء :

فكرة العالمية ليست حديثة ، وإن كان الحديث عنها مؤخراً بعد تقدم وسائل الاتصال والانتقال أصبح هو حديث الساعة ، ونجد ذلك مثلاً في كلام هامرتون وآخرين : « فالعالمية إذن أساسها وحدة العالم الجغرافية وما طرأ عليها من تغيرات وهي ما تعرف بالتطور الجغرافي » [٢] ، وربما كان هذا الفهم وراء المطالبة بالانتماء الجغرافي .

كما وجد من الباحثين من يقول : « وأصبحت الحقيقة التي لا خلاف عليها هي أن التقسيم السياسي للعالم في مراحل التطور المختلفة ، هو تقسيم اصطناعي فرضه ضعف الإنسان في مواجهة (الطبيعة) من ناحية ، وهذا ما تغلب عليه الإنسان ، كما فرضته من ناحية أخرى (أنانية الجماعات الإنسانية) فابتدعت ما يعرف بالعنصر والجنس والقومية وسيادة الدولة رغم وحدة الأصل ، وخطورة هذا التقسيم المصطنع تكمن في الصراع الدائم بين هذه الجماعات البشرية ، وهو صراع يتطور بتطور العلم وأسلحة القتال » [٣] .

والمستقرئ لما يكتب في أدبيات العلوم الاجتماعية ، يتبين له أن فكرة العالمية تظهر كأداة تحليلية لوصف عمليات التغيير في منظومات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، أي أن العالميةلم تعد مجرد فكرة فقط ، وإنما أصبحت عملية مستمرة لإحداث تغييرات ذات مؤشرات كمية وكيفية .

وربما هذا الذي جعل بعضهم يقول : « وهذا التصور للعالمية ليس حديث العهد ، فهو متأصل في التاريخ ، ومن يتتبعه يستطيع أن يدرك أن رجال العلم والمعرفة يلتقطون الظواهر ويقتلونها بحثاً وتحليلاً ثم يقدمون لنا نتيجة عملهم على هيئة آراء ، وكثيراً ما تتحول هذه الآراء إلى فلسفة معينة يعتنقها قائد عسكري فيعمل على تنفيذها بالقوة ، أو يعتنقها زعيم سياسي فيعمل على تحقيقها بوسائل سلمية ، وهذا لا يعني أن كلاً من العسكريين والسياسيين يعمل مستقلاً عن الآخر ، بل يعني أن السلطة الحاكمة إذا آمنت بمبدأ أو فكرة لجأت إلى تحقيقها بوسائل حربية أو سلمية » [٤] .

فإذا كانت فلسفة العالمية ونموذجها التطبيقي تختلف باختلاف الرؤية التي ترتكز عليها هذه الفلسفة ، فذلك أمر بدهي : إذ أن العوامل المؤثرة في المنظومات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية تختلف باختلاف المبدأ الذي تصدر عنه ، فإن تطبيقاتها في الواقع تختلف باختلاف المكان والزمان تاريخياً ، والمهم هنا هو الإشارة إلى وجود دراسات أثبتت كما يقول الدكتور الأبياري : « أن للعالمية تقسيمات متعددة ، فقد تكون عالمية مفتوحة لا تخضع لأي قيد ، وقد تكون ضيقة النطاق أو مقيدة ، ومن ثم تخضع لشروط وأوضاع معينة ، وقد تكون العالمية دينية ، وقد تكون علمية ، أو(أيدلوجية) ، وهكذا»(٥)

وإنني أعتقد أن المشكلة لا تكمن في وجود رؤى مختلفة تحكمها سلطة واحدة على مستوى مجتمع ما ، ولكنها تنبع من اختلاف التصورات للإنسان والمجتمع والعالم ، ووسائل تحقيق هذه التصورات على النطاق المحلي والإقليمي وعلى النطاق العالمي !!! هل تصدر هذه الرؤى والتطبيقات عن النظام الذي أقره خالق الإنسان والكون : { **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** } [الحجرات : ١٣] ، أم هي وسائل قهر الناس على رؤية بشرية تفرضها قوة عالمية متنفذة ؟!

لقد أثبتت التجارب البشرية - في عصر الاتصالات السريعة - أن الأحداث الاقتصادية أو السياسية في منطقة معينة من العالم ، تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الأوضاع الاقتصادية والسياسية في مناطق أخرى من هذا العالم ، كما حدث في حرب اكتوبر ١٩٧٣م وحرب تحرير الكويت في أوائل ١٩٩١م ، ولا شك أن ذلك يرجع إلى : انتشار ما عرف بعولمة الإنتاج والتبادل التجاري ، والمنافسة بين القوى العالمية الكبرى ، والتقدم التكنولوجي وما عرف بالحداثة وما بعد الحداثة .

الخلاصة : إذا كانت الثقافة العالمية وظهور وعي عالمي لهما تأثيرهما على الثقافات والحضارات المحلية والإقليمية ، فإن للإنسان أن يتساءل : ما هي القوى المتنفذة عالمياً ، التي ستسعى إلى السيطرة على صياغة هذه الثقافة العالمية وإيجاد هذا الوعي العالمي ؟!

ولا شك أن أي متابع للأوضاع العالمية يحق له أن يجيب قائلاً : بعد خروج أمريكا منتصرة من حرب الخليج الثانية ١٩٩١م ، حاولت من خلال حملات منظمة قادها الرئيس السابق " جورج بوش " باسم (النظام العالمي الجديد) ، حاولت فرض النظام القيمي للرأسمالية بصورتها الغربية ، وتسويق ذلك على أنه النظام العالمي الواجب الخضوع له في كل مكان ، وقد دعم صناع القرار السياسي علماء

يمثلون المؤسسة الفكرية أمثال " فوكوياما " و " صامويل هنتنجون " في نظريتي : (نهاية التاريخ) و (صراع الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي) .

وفي مواجهة هذه الموجة العاتية على كل مفكر واعي حر بصير أن يبذل جهده لمنع هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية الثقافية والحضارية ، والعمل على إيجاد صورة عالمية للعلاقات تكون أكثر إنسانية ومساواة ، تظهر من خلالها إمكانية تحقيق كرامة الإنسان بصورة حقيقية ، وتسمح لأصحاب كل هوية أن يتمسكوا بخصوصياتهم بحرية ونزاهة .

٢- العلاقات المتعددة

يقول الأستاذ " السيد ياسين " : « يعتبر الاتجاه القوي تجاه التعددية أحد أهم ملامح العلاقات الدولية في العقود الأخيرة ، ويعتبر مشروع المجموعة الأوروبية بكل أصدائه ونتائجه حالة ممثلة لهذا الاتجاه .. ويمكن تعريف العلاقات المتعددة الأطراف بأنها تنسيق السياسات الوطنية ، في مجموعات مكونة من ثلاث دول أو أكثر ، من خلال اتفاقات معينة وبصفة مؤقتة أو عن طريق المؤسسة .

وهناك نهج فكرية مختلفة للعلاقات المتعددة الأطراف ، ولقد عدد " روبرت كوكس " أربعة نهج وهي : الواقعية ، المؤسسية ، الليبرالية ، بنيونة النظام العالمي والجدلية التاريخية » [٦] .

والمتتبع لما حدث في العقد الأخير من هذا القرن يجد أن كثيراً من المنظومات في العلاقات تحاول أن تأخذ طريقها إلى التطبيق في واقع الحياة ، وقد أرشدت الرائد في عددها رقم ١٩٨ بعنوان (من الذي دفع فاتورة الحرب الباردة ؟) ، وفي عددها رقم ٢٠١ بعنوان (ماذا بعد التطورات في بؤر الأزمات ؟) إلى كثير من هذه العلاقات المتعددة الأطراف .

والذي يهمنا هنا هو علاقات المسلمين مع بعضهم كأمة واحدة ، فمنذ انتهاء دولة الخلافة انتهى آخر كيان سياسي جامع لهم ، وعمل الاستعمار القديم والجديد على سلخهم من هويتهم وتأجيج الصراعات فيما بينهم ، والغريب هو استعداد المسلمين للتفتيت والاحتراب لتحقيق مصالح سواهم ، والأغرب أن هذه الصور العملية للتشرذم والصراع انتقلت مع المسلمين المهاجرين إلى أوروبا وأمريكا ، فتراهم يفقدون هويتهم بل ووجودهم ولكن بأسهم بينهم شديد ، ومما لا شك فيه أنهم سيفقدون هويتهم الشخصية والجماعية بمرور الوقت إن لم يستيقظوا ويتنبهوا للمخاطر التي تحيط بهم .

الخلاصة : لا بد من استيعاب فقه الأقليات والعمل على تجاوز العصبيات ، وإشاعة روح الحوار للتعارف بين الثقافات المختلفة والهويات للوصول إلى الصيغة التي يرضى عنها الخالق سبحانه في

التعايش بين أصحاب الهويات المختلفة ، وذلك يتطلب :

(١) العمل الإيجابي لإنهاء كل صور القهر ، فالقهر سبيل للإقصاء أو القضاء أو استضعاف الآخر .

(٢) اتخاذ الأسباب والوسائل لكشف مصادر الصراع ، وتطوير إجراءات وأساليب القضاء عليه ، بما يساعد على إحداث هدنة بين الرؤى المتباينة .

(٣) العمل على توسيع الأرضية المشتركة بالتعاون على البر والخير والمصالح العامة ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان .

٣- ظهور العصبيات القومية والوطنية

أثبتت الدراسات التاريخية تجذر العصبيات ، وبالتالي ظهورها من وقت لآخر ، ولقد ظهرت في العقود الأخيرة هذه العصبية القومية من خلال حروب التطهير العرقي التي تمثلت في المذابح الجماعية للمدنيين ، ودفن البشر أحياء ، واغتصاب النساء وغير ذلك من الفظائع التي لا يمكن تصويرها بالعبارة أو الصورة ، ولا زالت حتى الآن آثار هذه الفظائع في أفريقيا وآسيا وأوروبا تشاهد يومياً على شاشات الرائي وعلى صفحات الجرائد والمجلات .. !!!

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : ما هو تأثير الفكرة العالمية على العلاقات المتعددة الأطراف وعلى العصبيات القومية ؟ هل هناك أمل في حوار بين الأطراف المختلفة يقود إلى إقامة علاقات متعددة على أساس الحق والعدل ، وتسمح بالتعايش بين الهويات المختلفة دون قهر واستبداد ؟! أم سيتشكل المستقبل على أساس فرض القوى المتنفذة لهيمنة حضارتها ومصالحها ، بإلزام الضعفاء الخروج من أرضهم والتنازل عن حقوقهم والانسلاخ من هوياتهم كما هو حادث الآن في بؤر الصراع المختلفة ؟!

ومساهمة في الإجابة على هذا السؤال أقول : مما لا شك فيه أن خالق الإنسان والكون هو الأقدر على تحديد وبيان ما هو أصلح للبشر في حياتهم الدنيا والآخرة ، وهو الذي قال سبحانه وتعالى : { **الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم ❋ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحقُّ من ربهم كَفَّرَ عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ❋ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم** ... } [محمد : ١- ٣] .

نعم ، إن الإنسان بفطرته لديه عواطف تشده إلى روابط إنسانية متعددة منها : الرابط النَّسَبي ، والرابط اللغوي ، ورابط الأرض ذات الحدود ، والرابط المصلحي ، وكلها روابط إنسانية جِبِلِّية ، ولكنها

تضعف وتتقطع شيئاً فشيئاً ، إذا لم تكن بين أفرادها وحدة عقيدية ولا وحدة منهجية في الحياة ، كما أن المناهج والمصالح والمباديء والغايات إذا تباينت انفصمت هذه الروابط تلقائياً ، كما أن الإنسان إذا جنح بعاطفته إلى أي رابط من هذه الروابط عن منطق الحق والعدل ، كانت عصبية مقيتة ، ويتولد عنها التقليد الأعمى ، والمناصرة بالباطل ، والتحزب الشيطاني ؛ والأمة التي تتفكك منظومة علاقاتها بتشرذم أفرادها وتقطع أمرهم بينهم إلى مباديء شتى ، كل حزب منهم معجب بما لديه من منهاج حياة ، إذا وصل هذا التفكك إلى درجة لا تسمح ببقائها ، فإنها تؤول إلى الزوال ، إما بالتلاشي ، وإما بنشوء أمة أخرى على أنقاضها ، وبقدر ما تكون منظومة العلاقات شاملة ، ويتمسك الناس بالعقيدة ذات الأساس الفكري الصحيح ، بقدر ما يقوى معنى الأمة في القلوب وحياة الأفراد ، فيكون ذلك سبباً في تماسك الأمة واستمرارها ، فوحدة العقيدة هي النظام المتين الذي ينتظم العقول والقلوب في عقد جماعي واحد ، شديد التماسك والترابط والانسجام ، مع شمول الوعي الفكري والصحوة النفسية .

النتيجة : الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله تعالى رحمة للعالمين ، لم يهمل الاستفادة من الروابط الإنسانية كروابط داعمة إيجابية إذا لم تؤثر على الرابط الإيماني ، وإذا لم يكن بين أحدها والرابط الإيماني تضاد أو تنافر ، أما إذا وجد التضاد أو التنافر فالرابط الإيماني هو المعتبر ، فالإسلام ألغى كل العصبيات التي تجعل الإنسان يؤيد الباطل انتصاراً لقومه وتعصباً لهم ، وألغى موادَّةَ من حادَّ الله ورسوله ولو كان من أقرب الأقربين ، قال تعالى : { **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوو أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** } [النساء : ١٣٥] ، وقال سبحانه : { **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** } [المائدة : ٨] ، وقال عزَّ وجلَّ : { **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادّ الله ورسولَهُ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ... } [المجادلة : ٢٢] . وقرر مبدأً إنسانياً بيَّن فيه أن التفاضل في الانتماء إلى الدين ، إنما يكون بمقدار التفاضل في التقوى ، قال تعالى: { **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ... } [الحجرات : ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس ! إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية ، وتَعاظُمَها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بَرٌ تقيٌّ كريم على الله ، وفاجر شقيٌّ هَيِّنٌ على الله ، والناس بنو آدمَ ، وخلق الله آدم من تراب » (حديث حسنٌ

راجع صحيح الجامع للشيخ ناصر حديث رقم ٧٧٤٤) .

ولقد دعا خاتم الأنبياء ﷺ الناس إلى الإسلام والدخول في عقد الأمة الربانية الواحدة ، وألغى المفاهيم العصبية الجاهلية الباطلة ، والتي يزعم أصحابها أن التفاضل بين الناس على أساس العرق أو اللون أو اللغة .. الخ ، وأثبت ﷺ أن التفاضل بين الناس بالحق القائم على أساس الإيمان بالله تعالى ، والتقوى ، والعمل الصالح ، والعلم النافع ، والخصائص الذاتية الشخصية الصادرة عن تزكية النفس وتطهيرها ، وبلَّغ عن ربه الوحي الذي تنـزَّل بأسس بنيان الأخوة الإيمانية الفكرية ذات البراهين القاطعة ، والحجج الدامغة ، التي تقنع ذوي الألباب بالحق : { وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...} [الكهف : ٢٩] ، فإذا وصل الإيمان إلى القلب تنزلت على الإنسان السكينة ، وسرت فيه لذة الطمأنينة ، وترشدت العاطفة بما انتهى إليه الفكر من علم جازم مقطوع به ، فتحقق الإذعان والخضوع والتسليم وإعلان الانقياد لله عزَّ وجلَّ .

للكلام صلة

الهوامش :

(١) روجيه غارودي ، من أجل حوار بين الحضارات ، ترجمة د. ذوقان قرقوط ، توزيع دار النفائس ، الطبعة الأولى ، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) د. محمد حسن الأبياري ، المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨، ص ٢٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٦) السيد ياسين ، بحث " حوار الحضارات في عالم متغير " منشور في " صراع الحضارات أم حوار الثقافات ؟ " والصادر ضمن أوراق ومداخلات المؤتمر الدولي حول صراع الحضارات أم حوار الثقافات ، القاهرة (١٠-١٩٩٧/٣/١٢م) ، مطبوعات التضامن ١٧٣